الحياة العالمة في الساحل و الصحراء: حياة أحمد بابا التنبكتي نموذجا

(963 – 1036 هـ / 1556 – 1627م)

د.محمدالأمين ولد أن، د. محمدن محمد التلميدي– جامعة نواكشوط، موريتانيا

RESUME

Le Sahel et le Sahara représentent une entité reconnue par son rôle historique dans l'entretien et la diffusion de la pensée islamique.

Ahmed Baba, qui fut un érudit de cet espace, ne fait pas l'exception. Connu pour sa sobriété et son endurance lors de l'invasion marocaine du Soudan vers 1591, il fut déjà savant en théologie et enseignant de renommée. Aussi a-t-il entrepris d'enseigner tout le savoir de l'époque dans la prestigieuse mosquée de Chourava à Marrakech pour d'éminents étudiants formés de cadis et de jurisconsultes. Plus sa réserve pendant trois ans sur la question envoyée de Touat et sa réponse par un épître indique sa notoriété dans le domaine. Cet échange de connaissance à travers le Sahara est révélateur de l'intensité et de la qualité des échanges scientifiques entre les deux espaces. Reste à signaler que l'origine et la généalogie d'Ahmed Baba Tomboucti est révélatrice de son appartenance àl'espace arabo berbère qui n'est pas en contradiction avec la domiciliation de sa famille au Soudan.

المقدمة

دخل الإسلام مبكرا إلى الشمال الإفريقي والصحراء الكبرى، وعلى الرغم من عدم وجود ذكر لمعارك لفتح الصحراء والأقاليم التي على حافتها الجنوبية خلافا لشمال إفريقيا، فإن الإشارات إلى تقادم الوجود الإسلامي في الصحراء ووجوده في السودان الغربي الذي يشكل الامتداد الطبيعي لبلاد صنهاجة تطالعنا ابتداء من القرن العاشر الميلادي في بلاد صنهاجة وفي مملكة غانا. ويعزز هذه الإشارات وجود مسالك تجارة القوافل في الصحراء وما تحمله القوافل من علم بالإضافة إلى حمولتها التقليدية من البضاعة وكذلك وجود آبار في المسالك الصحراوية التي تتحدث عنها المصادر والتي يعزى حفرها إلى أحفاد عبيد الله الفهري.

كل هذه الإشارات وغيرها ولّد لدينا شعورا بأن هذا الحيز كان وحدة دينية متحدة ساد فيها ذات المذهب المالكي وسادت فيها ذات التقاليد الدراسية بحيث عزز ذلك تبادل المعرفة والخبرة الدينية والإفتائية. والعلم الذي نروم تقديمه يعتبر خير مثال يستدل به على هذه الوضعية. فهو ضليع في الثقافة العربية الإسلامية وينتمي إلى أقصى هذا الحيز (السودان الغربي) وتبادل الرسائل العلمية مع علماء من الشمال الإفريقي،كما ترك موروثا علميا شاهدا على كل هذه الاهتمامات وهذه المكانة العلمية السامقة.

ولبلورة الصورة نورد نبذا من حياة أحمد بابا التنبكتي مركزين على دراسته وتدريسه قبل أن نلقي نظرة على الصلاتالعلمية بين علماء المنطقة في هذه الفترة. وذلك في محاور على النحو التالي:

المحور الأول: حياة المؤلف:

1. اسمه،مولده، نشأته:

هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن علي بن يحي بن كدالة بن بكي بن نيق بن لف بن يحي بن تشت بن تنقر بن جبراي بن اكنبر بن أنص بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسنيالتنبكتي المالكي[1].

ولد أحمد بابا في تنبكتو ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة 963هـ/1556م في بيت علم وصلاح في أسرة آل آقيت الذين توطنوا تنبكتو، بعد نزوحهم من بيرو (ولاته حاليا) إلي بادية ماسينا حيث ضايقهم الفلان الذين كانوا يحذرون من الارتباط بهم عن طريق المصاهرة . ومن المعتقد أنهم قبل ذلك نزحوا في إطار الهجرة البطيئة في خضم الانتشار وبحثا عن مناطق أكثر استقبلا[2] . أقل خشونة من الصحراء. وهي الهجرات التي بدأت منذ 3000 سنة قبل الميلاد والتي أثبتت الحفريات أنها انطلقت من ظهر تشيت والتي أعقبتها هجرات نرى أنها سلكت خطا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، والذي كان السودان يمثل أولى مناطق الاحتكاك بين جنوب حافة الصحراء وشمال هذه الحافة، وتأسيسا على ما تقدم نعتبر الأقيتين فخذا من قبيلة إدولحاج التي تألفت في القرن 6هـ على يد رجال أبرزهم: الحاج عثمان في وادان وهو الذي يعتقد أنه الأب الواهب لاسم القبيلة، ولو أنه يبقى مستحيلا إرجاع نسب كل مجموعاتها إليه . وتتجلي الصعوبة لصاحبنا في رد نسبه للحاجيين إذا علمنا أنه ترجم لنفسه بالصنهاجي الماسنيالمسوفي وهي تحديدات تترك الاعتقاد بأنه منحدر من السكان الأصليين في الصحراء الذين يُرجع عبد الرحمن بن خلدون نسبهم إلى مجموعة لبرانس، ويقول المختار بن حامدن[3]ما نصه: "ادولحاج من مالي هم الاقيتيون خرج أسلفاهم قديما من وادان فنزلوا أولا كما في تاريخ السودان ربوة تسمى ماسنة وهي في أرضباغنة ثم خرج منهم محمد آقيت إلى بيرو أي ولاته (حاليا) خوفا على بنيه أن يتناسلوا مع الفلان ثم خرجوا إلىتنبكتو حيث ثبت بنوه...".

وقد حافظت الأسرة على مكانة مرموقة علميا وتجاريا وحتى سياسيا وتولى بعض أفرادها القضاء في تنبكتو لقرنين، فأكثر ابتداء من القرن 15م.

وفي هذا الجو المملوء: علما وأدبا نشأ أحمد بابا وترعرى بين أحضان أقاربه من الاتجاهين الأبوي والأمومي. أما بالنسبة لعقبة، فإننا لم نعثر على عقب ترك ظلاله على المنطقة كما كان شأنه هو إلا أن محمودا الزبير ذكر معلومات أشارت إلى أنه كان له ولد وبنت وتلك المصادر نذكرها كما وردت في كتاب أحمد بابا (1556 – 1627) حياته ومؤلفاته على شكل إشارات تاريخية:

تأتينا الإشارة الأولى مع أحمد المقري (ت1633) الذي يؤكد أنه عرف الولد الصغير لأحمد بابا ويدعى محمد ويضيف المرجع أنه مات في مراكش وهو لا يزال شابا كما يذكر له إنتاج شعري جزيل يبين فيه تشوقه لوطنه تنبكتو. ويشير معاصر آخر لأحمد بابا هو عبد الرحمن التمنياري(ت1662/1070) في معرض حديثه عن الإجازة التي وصلت من شيخه عن طريق المراسلة، إلى ابن أستاذهبإسم محمد.

يذكر عبد الرحمن السعدي[4]: "أن محمد السيد قابل الباشا المغربي عالي بن عبد القادر الذي لجأ إليه هروبا من أعدا ئه الذين هموا بقتله وتركوه في حرمة ابن أحمد بابا، كما توجد إشارة على مخطوط لنيل الابتهاج (المكتبة الوطنية الفرنسية) تشير إلى أن كتابهزوج نانا عيشا وهو حفيد لأحمد بابا من بنت له كما أننا نجد إشارة في ذات المصدر لرحالة فرنسي زار منطقة تنبكتو وهو الرحالة فليكس ديبواFelix Dibois يقول فيها أنه التقى بأحفاد لأحمد بابا ويسجل أنه في القرن 19م وحتى القرن 20م ما زالت آثار منحدرين من أحمد بابا في تنبكتو[5].

وهكذا تكون هذه المعلومات تبعث على الاعتقاد أن أحمد بابا كان له عقب ورثوه

وإذا كانت هذه محاولة لإعطاء نبذة عن حياة أحمد باب فكيف كانت دراسته وما هو إنتاجه وكيف كان تدريسه؟.

2. دراسة أحمد بابا

حفظ أحمد بابا القرآن الكريم وهو في مستقبل عمره وحفظ كذلك أمهات من الكتب وهو ما يزال في بيته ثم قرأ النحو على عمه أبي بكر وعن والده أخذ الحديث والمنطق سماعا . وتعمق في بعض المتون ، فقرأ الرسالة لابن أبي زيد القيرواني تفقها وقرأ مقامات الحريري، وقرأ على شيخه محمد بغْيُغ، الذي لازمه سنواتعديدة، التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان . فنراه يقول: (...فختمت عليه مختصر خليل بقراءتي وقراءة غيري عليه ثمان مرات، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم وتسهيلابن مالك قراءة بحث عدة مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد مرتين، وصغرى السنوسي، وشرح الجزائرية له وحكم ابن عطاء الله، مع شرح زروق لها، ونظم ابن مقرع، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المفيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح الشريف السبتي وكثيرا من تحفة الحكام لأبي عاصم مع شرحها لابنه كلها بقراءتي، وقرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه وحضرته في التوضيح لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى الأقضية وكثيرا من المنتقى للباجي، والمدونة بشرح أبي الحسن الزويلي، وشفاء عياض وقرأت عليه صحيح البخاري نحو النصف، وسمعته بقراءته، وكذلك صحيح مسلم كله ودولا من مدخل بن الحاج ودروسا من الرسالة والألفية وغيرها، وفسرت عليه القرآن العزيز، إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا وهو سفر كبير ومواضع آخر منه)6.

3. أساتذته:

كانت دراسة أحمد بابا على والده أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت(929-991 هـ)، وقد ترجم له في كتابه "نيل الابتهاج" ونقل عبد الرحمن السعدي هذه الترجمة في كتابه"تاريخ السودان7 وقال عنه: «كان أصوليا بيانيا منطقيا مشاركا.. يغلظ على الملوك فمن دونهم وينقادون له أعظم الانقياد ويزورونه في داره ، ولما مرض في كاغ 8 في بعض أسفاره كان السلطان الأعظم أسكيا داوود يأتي إليه بالليل فيسهر عنده حتى برئ»9.

عرف بشغفه بجمع الكتب ووفرة الخزانة محتويةعلى كل علق نفيس وكان سموحا بإعارتها أخذ عن عمه محمود بن محمد آقيت وغيره، رحل إلي المشرق عام 956 حاجا واجتمع بعلماء منهم الناصر اللقاني والشريف يوسف تلميذ السيوطي والجمال الشيخ بن زكريا والأجهوريوالتاجوري، ولازم أبا المكارم محمد البكري وقفل راجعا إلي بلدهفدرس فيه. وكان من جملة تلاميذه أبو العباس أحمد بابا الذي درس عليه القرآن وبعض الأمهات ويقول أحمد بابا: وحضرت عليه أشياء عدة وأجازني جميع ما يجوز له وعنه وسمعت بقراءته الصحيحين والموطأ والشفاء10.

آ- دراسته على عمه:

درس أحمد بابا على عمه الرجل الصالح أبي بكر المعروف ب: بابكر بير بن الحاج أحمد آقيت كما ضبطه عبد الرحمن السعدي، العالم الزاهد، الذي هاجر بعياله إلى الديار المقدسة للجوار في آخر أيامه حيث مات، وأخذ عليه أحمد بابا النحو أساسا، ألف أبي بكر في التصوف وغيره ومن مؤلفاته معين الضعفاء كما ذكر ذلك صاحب الترجمة في نيل الابتهاج.

ب- دراسته على محمد بغْيُغ:

درس صاحبنا أحمد بابا على محمد بغْيُغ وهو محمد بن محمود بن أبي بكر الونكريالتنبكتي عرف ب بغْيُ غ كما نقلها عبد الرحمن السعدي11 عن الذيل، ولد في تنبكتو 930هـ ودرس فيها وبلغ من العلم مبلغا عظيما، عاصر والد أحمد بابا وهو فقيه عالم متعبد حج وأخذ عن أعلام عصره في المشرق كما في المغرب . لازمه صاحبنا أكثر من عشرين سنة وأخذ عنه الكثير و أجازه بخطه

في "جميع ما يجوز له وعنه"، وقد كانت له معه موافقات عرض عليه فيه ا بعض تآليفه فسر بها وقرظ عليها بخطه وحتى أنه كتب عنه عديد أشياء من أبحاثه نقل بعضها في دروس لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق أين ما كان، ويذكر أحمد بابا أنه رآه مرة يوم الواقعة عليهم في تنبكتو. كانت صحبته له أكثر ملازمة أشتهر بها وتوفي محمد بغيع رحمه الله 1002هـ قبل عودة أحمد بابا من المغرب بسنتين.

ج- دراسته على العاقب:

أخذ أحمد بابا أيضا عن قاضي تنبكتو في زمانه العاقب بن محمود بن عمر بن محمد آقيت الصنهاجي (313-990هـ) الذي أجازه كل ما يجوز له وعنه وهو الشيخ الذي أدى فريضة الحج وكانت فرصة له لقي خلالها الناصر القاني وأبا الحسن البكري والشيخ البشكريطبقتهم من فقهاء المشرق.

4. محنة أحمد بابا:

تعرض أحمد بابا إلى محنة في قومه وموطنهالسودان على يد الباشا محمود زروق أحد قواد حملة السلطان السعدي أحمد الذهبي وهي الحملة الثانية12 التي نجحت في النهاية في السيطرة على مملكة السون غي في بداية العقد الأخير من القرن 16م، وكان محمود طلب من أحد مساعديه أن يتولى عنه مهمة توقيف 13 آل آقيت ريثما يصل من أحدى مغازيه إلى تنبكتو فاعتذر ذلك القائم لجسامة المهمة وللمكانة التي كانت عند آل آقيت في تنبكتو وهم أسرة علم ورياسة احتفظت بالصدارة في ذلك القضاء على مدى قرنين ويزيد.

ولما حضر الباشا محمود دبر حيلة لأخذهم فأفشي أنه سيقوم بتحقيق على إثره يسجن كل من وجد عنده مال (ذهب أو غيره) وأن منازل الفقهاء مستثنية من ذلك، وكانت العملية غدرا ، لأن التفتيش طال منازل آل آقيت وكان ذريعة مباشرة لإلقاء القبض عليهم، إلا أن السبب الخفي هو المعارضة البينة لفقهاء تنبكتو لشرعية الحملة على إقليم مسلم وما تلا ذلك من تصرفات الباشا جودر والباشا محمود من بعده والتي تجد مبررها فيما يبدو في محتوى المقابلة التي أجر اها أحمد بابا مع المنصور أحمد الذهبي والتي صارت شهيرة فيما بعد14.

5. جلوسه للتدريس وذكر بعض من أخذ عنه

أورد أبو بكر الصديق البرتلي الولاتي 15 في باب ترجمة أحمد بابا ما نقله عن صاحب الترجمة في معرض حديثه عن نفسه حيث قال: (ولما خرجنا من المحنة "أي السجن" طلبوا مني الإقرا ء فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش من أنوه جوامعها، اقرأ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه وكذلك تسهيل ابن مالك وألفية الحديث للعراقي، فختمت على نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لأبي عاصم، وجمع الجوامع للسبكي وحكم بن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا والصحيحين سماعا وإسماعا مرارا ومختصرهما، وكذلك الشفاء والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي وتماثل الترمذي، والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي وغيرها.."

ويظهر من خلال ما ذكره الشيخ أنه كان يدرس المتون المشهورة في المغرب الإسلامي عامة إبان القرن العاشر الهجري وخاصة منها الفقه المالكي باعتباره هو المذهب السائد الذي توطدت غراه بعد اختفاء المذهب الشيعي الذي كان الفاطميون روجوا له في هذه المنطقة ابتداء من القرن الثالث الهجري. وتجدر الإشارة إلى أن المقرر في الدراسة الإسلامية واللغوية لا يكاد يختلف سواء في تنبكتو وفي فاس ومراكش وتوات والقيروان، كما يظهر من خلال الاستشهاد أن نمط التدريس. الإلقاء على شكل محاضرات

والجواب عن الاستفسارات والحوار وغيره. هو هو نفسه في هذه المناطق وهو ذات المنهج المعروف في بلاد السودان وما زال معمولا به حتى الآن في بلاد شنقيط.

ولا شك أن المدرسة التي أخرجت أحمد بابا هي بحق جامعة بدوية متنقلة راقية في مصاف الزيتونة و غيره من قلاع العلم المنتشرة حينها.

كما أن أحمد بابا أجاز كثيرا من فقهاء المغرب الأقصى والمغرب الأوسط ورد عن كثير من الأسئلة بأجوبة صنف أكثرها على الرغم من مشاغله في إقامته القصيرة خارج وطنه كما أنه نصب نفسه مدرسا بعد عودته إلى تنبكتو.

يبقى أن نحاول البحث في الذين أخذوا عنه العلم؟

من الصعب تقصى كل من أخذ عن أحمد باب ا إلا أنه بإمكاننا إيراد جملة من الذين أخذوا عليه بالاعتماد على الزبير خاصة بمراكش وهم على التوالي:

- محمد بن يعقوب الأيسري المراكشي
- ابن القاسم أبي النعيم الغساني قاضي الجماعة بفاس
- أبو العباس القاضي ، قاضي مكناسة
- الرجراجي مفتي مراكش،
- عبد الرحمن التمناريتي(الذي أجازه مراسلة)، وغيرهم كثير وإن كانت لم

تصلنا أسماؤهم وخاصة من درسه بعد عودته إلى السودان في مطلع القرن 11هـ ولم نقف لهم على ذكرى في التواريخ المحلية.

وقراءة في مراتب هؤلاء الطلبة المذكورين تثير لدينا الاعتقاد بأن صاحبنا كان على درجة علمية كبيرة لأن طلابه لم يدرسوا عليه إلا لحاجة في طبيعة المادة التي تتوفر عليها والمعارف التي استقاها ولا غرو ، لأن السودان الغربي وإن كان على اتصال دائم بالشمال الإفريقي في طريق القوافل. إلا أن مؤثرات من الشرق الإسلامي كانت تصله دائما عن طريق الحجاج تارة وعن طريق الزوار. السيوطي مثلا وكذلك عن طريق الهجرات البطيئة التي لا تكاد تظهر لنا، ومما يدعم ذلك أصول أغلب السكان في المنطقة والتي ترجعها أغلب المصادر المتوفرة إلى العرب والمصريين16.

6. مؤلفات أحمد بابا

اختلف في عدد مؤلفات أحمد بابا التنبكتي وقد أورد صاحب فتح الشكور منها تسعة وثلاثين وقال محمود أ.الزبير 17أنها بلغت 56 عنوانا إلا أنه لم يورد منها إلا بضعا وثلاثين. ومهما يكن، فإن إنتاج أحمد بابا الفكري كان غزيرا ، كما أن طبيعة المصنفات وكثرة الأجوبة وتشعبها يترك الاعتقاد بالباع الواسع الذي تضلع من علوم جمة. ويعتقد أن جل أعماله فاز بها تلامذته الذين لازموه وأخذوها عنه خاصة الفترة الأخيرة التي قضاها في بلاده ولعل ذلك ما يفسر انتشار مؤلفاته فيالسودان والصحراء حيث إن كتبه موجودة في بعض المكتبات الخاصة في موريتانيا في المدن التاريخية كتيشيت وولاتة18.

ومؤلفات أحمد باباالتنبكتي لا يمكن حصرها، ونورد هنابعضها على سبيل المثال:

- في العقيدة:نزول الرحمة في التحدث بالنقمة

- في الحديثغاية الأمل في تفضيل النية على العمل

- في السيرة: خمائل الزهر في كيفية الصلاة على سيد البشر والدر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير النذير

- في الفقه:المقصد الكفيل بحل مقفل خليل وسنن الرب الجليل في تحرير مهمات خليل ، والكشف والبيان في حكم أصناف مجلوب السودان أو ممراح الصعود إلي نيل حكم مجلب السود

-التاريخ والسير: دور السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل الملوك ونيل الابتهاج بالذيل على الديباج

- في اللغة والنحو:النكت الوافية بشرح الألفية وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدئ شرط الإفادة ...إلخ.

7- نسب أحمد بابا:

ينتمي الفقيه أحد باباالتنبكتي إلىالأقيتيين، كما هو معروف وهم مجموعةقادمةإلىتنبكتوالتي لم تشهد إعمارا يذكر قبل القرن 5هـ، ومن المعروف أن آل آقيت ترددوا كثيرا قبل الاستقرار في تنبكتوخوفا من أن يختلطوا بالفلان كما أشار إلي ذلك محمود كعت، ورجعوا من بلغة إلىولاتة قبل أن تعمر تنبكتوتصبح حاضرة مأمومة. ونعتقد أن هذه التقلبات في الهجرة والهجرة المعاكسة ناتجة عن التقلبات المناخية Péjoration climatique التي كانت تفسر الانتقال إلى الجنوب في فصل الصيف والرجوع إلي الديار عند الخريف لما تخضر المراعي الأصلية، ويمكننا أن نستشف تحركا بطيئا لكنه دائب من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي يمكن أن تشهد عليه آثار وجود زنوج على ظهر تكانت 19 كما يشهد عليه وجود أولاد أمبارك في كارطة والزاوية الكنتية في تنبكتو لاحقا.

وباعتبار أن قبيلةإدوالحاج(الحاجيين) الذين ظهروا بوادان في القرن الخامس الهجري على يد الحاج عثمان ورفقائه 20 والذين لا تختلف قبيلتهم في أصول تكوينها على ما نعتقد عن باقي القبائل المعروفة في هذا الفضاء من حيث أنها تكتسب اسمها من رجل واهب وتشمل شتاتا لا ينحدر بالضرورة من عصبية واحدة وحواشي ومستوطنين ولائذون ومحتمون إلى غير ذلك.

ومن هذا المنطلق وتأسيسا عليه فإن الوجود الحالي لأسر أوقيتية في وادان والذي يرجعه عبد الرحمن السعدي إلى مبعوث من أسرة آل آقيت إلى السلطان المغربي والذي توقف في وادان واستقر فيها فيما بعد لا نعتبره نحن إلا قديما، ذلك أن إرجاع أحمد باب نفسه نسبة إلىالمسوفيين الصنهاجيين الماسنيين لا ينفي كونه من الحاجيين لأن المسألة في الأساس مسألة انتماء، والمعروف عند المختار ولد حامدن النسابة والمؤرخ الموريتاني الشهير (1896 - 1993) أن الأقيتيين من قبيلة إدوالحاج21 وحتى نتوصل إلى ما ينفي هذه الوضعية التي تعتمد على وحدة الحيز الجغرافي والثقافي وقوة الصلات، فإننا نتمسك بانتماء المجموعة التي ظهرت في حواضر السودان إلي أصولها العربية الصنهاجية في بلاد الملثمين عموما وبلاد شنقيط على وجه الخصوص.

المحور الثاني:الصلات الثقافية والعلمية بين السودان والشمال الإفريقي

1.الملامح العامة للحياة السياسية والفكرية في السودان الغربي22 ق10هـ/16م:

لقد شهدت إمبراطوريةالسونغاي في القرن السادس عشرالميلادي ازدهاراعظيما تحت حكم الاسكيين وبسطت نفوذها على مساحة شاسعة من إفريقيا الغربية (بلاد السودان) فأخضعت بنفوذها دولا تدفع غرامات للمركز (جاوا) ،كما قامت حواضر السودان كغيرها من الحواضر في هذه الفترة بشأن كبير في التجارة عبر الصحراء التي كانت تمثل شريان تدفق مواد التبادل في

الاتجاهين وكذلك المؤثرات الثقافية وهجرات معتبرة.وحصل هؤلاء الملوك على ثروات طائلة من حبوب وماشية وغيرها ولم تغن هذه الخيرات من زيادة الضرائب على المدن التجارية، وابتكر السلطان في سونغاي تجارة الذهب والعبيد وحتى الملح . مملحة تغازة . قبل أن يدخلها السلطان أحمد المنصور الذي لقب، فيما بعد بالذهبي بعد أن تمت له السيطرة على السودان الغربي في نهاية الألفية الأولى للهجرة. وبوصول السعديين إلىالسودان الغربي حصل تراجع في تلك الحياة السياسية الزاهية وظهرت دويلات وثنية تنابذ الإسلام والمسلمين وكثرت الحروب والغارات والسبي ومن ثم الاسترقاق.

وكانت تنبكتو مسقط رأس أحمد بابا، حاضرة أمها التجار والعلماء من كل بلد من وغدو ثم أهل تلك الجهة كلها بعد خراب بيرو (ولاتة) التي حييت تنبكتو على أنقاض مجدها، كما عرفت تنبكتو بجوامعها التي من أشهرها جامع صانغوري الذي تخرج منه علماء وقضاة كبار من أمثال عمر بن محمد آقيت والقاضي محمود الذائع الصيت وصاحبنا أحمد بابا نفسه الذي تولي التدريس في جامع الشرفاء بمراكش كما تولي الإفتاء والتصنيف، وبإمكاننا إضافة أصحاب تواريخ تنبكتو وخاصة عبد الرحمن السعدي ، كما حصلنا على نسبته من اسم أسرته، ونعتقد أن ما أصاب نسبته (السعدي) إنما هو راجع إلي الترجمة عند المستشرقين وهي التي لم تراجع حتى الآن. وكانت مدارس تنبكتو وغيرها من الحواضر السودانية تعتمد تدريس الأصول من كتاب وسُنة، كما تعتمد تدريس الفقه المالكي صرفا باعتباره المذهب المتداول في ذلك الفضاء . وهنا لا يسعنا إلا أن نذكر ما كان من صلات بين وادان وتيشيتوولاتة مع حواضر الجنوب بالإضافة إلى علاقاتها بالشمال الافريقي عموما وسجلماسة وتوات وتيندوف على وجه الخصوص.فتسمية الرجال المنحدرين من هذه المدن في مناصب ومراتب إمامة وتدريس في ت نبكتو وجني وغيرها كما أن البرتلي يذكرمناولة بعض طلبة العلم من الجنوب للدراسة في ولاتة .كما أن مادة التدريس كما بينها محمود كعت لا تقل أهمية عما كان عليه الدرس في الشمال الإفريقي عموما . ولعل الرجوع إلى أحمد بابا في مسألة فقهية باعتباره فقيها مالكيا يكفي للتدليل إلى ما آل إليه هذا التدريس من شمولية وارتباط بالمتون المقررة في الحواضر الإسلامية حينها. كما أن رجوع أحد فقهاء توات23وهو العالم العلم سعيدي إبراهيم التونسي الأصل التمنطيطي 24 الوطن إليه في استشكال حول مسألة معروفة يبين الأزمة الحاصلة في فقه النوازل وهذه القضية بالذات هي التي أراد الفقه الحضري التوسع في أخبارها فكان الجواب على شكل مصنف مكتمل مما يترك الاعتقاد بأن للجنوب الصحراوي السوداني، الأقل تحضرا، فقها يوازي الفقه الحضريبإمكانه الإضافة حتى يتم التغلب على بعض المسائل المطروحة.ويبقى أن نشير هنا إلى أن الفقه البدوي استطاع استحداث أحوال تتعلق بالمكايل مثلا ومنها ما يتعلق بالحريم والحسبة ونظام الملك ولدت اجتهادات في الجنوب وهي التي يعرفها الشيخ محمد المامي 25 بفقه البادية، كما كانت هذه المسائل يومية تفرض وجود تبصر وتقليد واع من لدن الفقهاء .

2. الصلات العلمية بين الحواضر في الشمال الإفريقي والساحل والصحراء:

لعل أجوبة عبد الكريم المغربي لآسكيا الحاج محمد في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي 26 والأسئلة الكثيرة التي وجهها هذا الأخير لكثير من الفقهاء هي خير دليل على تلك الحاجة الماسة في تداول الفقه في هذا الفضاء ، ويشير محمد اليدالي إلى أن: (الاعتماد على إمام واحد مطلقا في جميع المسائل كما جرت به العادة اليوم في الامتناع من الخروج عن مذهب مالك فليس بمخلص من الورع)27. وبما أن ظروف البدو والظعن والهجرات تطرح مسائل جديدة نرى أن فقهاء السودان بلغوا درجة عالية في معالجتها ويظهر ذلك من خلال السؤال الأول لصاحب توات والذي يبين فيه مكانة السودانيين في منظومة الفقه المالكي، ولم تخرج مسألة مصنف"مجلوب السودان" عن هذا السياق، لأن الأجوبة المتحصل عليها قديمة حديثة. ذلك أن أحمد بابا استطاع بعد تحر، أن يجمع ما يسوغ رأي الإسلام من ورع وتعفف وتحر في الأصول قبل أن يصدر حكما لا شك أنه كان بالإمكان الحصول عليه في مواطن السؤال أي في توات وتمنطيط، فكان الجواب مبينا لأحوال المنطقة من الناحية السياسية ومن الناحية التاريخية وهي

الأحوال التي تبني عليها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للساكنة ثم تستنبط منها الأحكام الشرعية باعتبار القواعد الفقهية في منظومة الفقه المالكي.

الخاتمة

رأينا في السطور الماضية حياة زاخرة لعلم من أعلام السودان الغربي. و قد بين جهد صاحبنا في حرصه على التعلم ومكابدة العلم وتأنيه في ذلك أن هذا الفضاء كان حيزا متشبعا من العلوم العربية الاسلامية الأصيلة. كما أن التدريس الذي مارسه بعد محنته يدل على أن مستوى المعرفة لديه كان عاليا، لأنه شمل كل العلوم و كافة المستويات.

إنمزيدا من البحث في التاريخ الثقافي لحواضر الساحل والصحراء سيكشف لا محالة مزيدا من المعلومات ذات الأهمية في رصد الدور الريادي في نشر ورعاية العلم في هذه الربوع.

الهوامش:

[1]–البرتلي(محمد بن أبي بكر الصديق..)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تحقيق م ب الكتاني ، م حجي ، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

[2]Péjoration– نشير هنا إلي تلك الهجرات التي تجد مبرراتها في الظروف المناخية غير المواتية والتي يعبر عنها ب

[3]IV.8–موسوعة حياة موريتانيا: ج ، ص

[4]–تاريخ السودان، 1965 ، ص 233.

[5]–MONTEIL V. ; L'islam noir, Seuil/Esprit, Pars, 1980, p.330.

[6]–التنبكتي أحمد بابا ، نيل الابتهاج في تطريز الديباج ، طربلس، 1997، ص42.

[7]– السعدي عبد الرحمن، المصدر السابق، ص42 ، وكذلك البرتلي(محمد بن أبي بكر الصديق..)، فتح الشكور ، المصدر السابق، ص 30.

[8]– قرية من إقليم تنبكتو

[9]– السعدي عبد الرحمن، المصدر السابق، ص48.

10–البرتلي، المصدر السابق، ص43.

11– السعدي الشيخ عبد الرحمن ،تاريخ السودان، المصدر السابق، ص45.

12–MONTEIL V. ; Op.cit..176

13– عبد الرحمن السعدي، م. س. ذ. ، ص46.

14–الناصري الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى . ج . دار الفكر المغرب

15–فتح الشكور في معرفة أعيان تكرور ، تحقيق م ب الكتاني، م حجي، دار الغرب الإسلامي، 1981 بيروت، ص343.

16– ZOUBER M.A., Ahmed Baba de Tombouctou 1556 – 1627 : Sa vie et son œuvre, Maisonneuve et Larousse, Paris, 1977, p192.

17–ZOUBER M.A., Op.cit., p194

18–كمصنف أحمد بابا النبكتي الموسوم "الكشف والبيان في أصناف مجلوب السودان" وهي نسخة أصلية مودعة أصلا في مكتبة أهل الشيخ المستعين وقد صورها المعهد الموريتاني للبحث العلمي من مدينة تيشيت وتحت رقم388– 464 تحت عنوان "مفتاح الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود" ويرجع نسخها لسنة 1189هـ.

19–VERNET R. (Textes rassemblés par -), *L'archéologie en Afrique de l'ouest : Sahara et Sahel*, Nouakchott, CRIAA/SEPIA, 2000, 323 p..

20–ولد حامدن المختار، موسوعي حياة موريتانيا، ج2، الجزء الجغرافي، تونس، 1993، ص43.

21–ولد حامدن المختار، م.س.ذ.، ص 44.

22– إقليم السودان أوبلاد السودان أو بلاد التكرور كما يسميها بعضهم الأرض. أطلق عليها العرب (أرض السود) قديما وبلاد السود أو بلاد السودان في القرون الوسيطة وتعني أرض السودان وهو مصطلح عام يطلق على المنطقة الواقعة بين الصحراء والغابات المدارية الممتدة بين الأطلسي حتى شواطئ البحر الأحمر وعرضه مئات الأميال تتألف أراضيه من تضاريس منخفضة بشكل عام. كما أن السودان تطلق على جميع البقاع التي يقطنها السود في قارة إفريقيا وقد جرى العرب على إطلاقها وكذلك الأوروبيين على ذلك الجزء من إفريقية الذي تقلقل فيه الإسلام مبكرا. و تقسم هذه المنطقة من الناحية العملية إلى السودان الغربي الذي يمتد من بحيرة أتشاد شرقا إلي المحيط الأطلسي والسودان الشرقي و يمتد من بحيرة أتشاد إلي شواطئ البحر الأحمر. وبالنسبة لنا فإن السودان الغربي أو بلاد السودان هي المنطقة من جنوب الصحراء إلي منطقة الغابات جنوبا و من بحيرة أتشاد إلي المحيط الأطلسي غربا وهي تسمية المرادفة في نظرنا لبلاد التكرور وتشمل في نظرنا القضاء الشنقيطي الذي ظهر في القرون الوسطى.

تسكن في هذا الحيز شعوب مختلفة من البربر و العرب وخاصة الشعوب الزنجية كما يحوي هذا الإقليم خيرات عديدة من حبوب و مياه و معادن من أهمها الذهب و الملح.

وقد شهد هذا الحيز عدة تنظيمات سياسية في القرون الوسطية كما أنه شهد في نهاية هذه الفترة عدة نزاعات وعدم استقرار كان وراء كثرة الحملات العسكرية والغارات والسبي و النهب: انظر في هذا الصدد: كعت محمود، تاريخ الفتاش، م س ذ، ص63 البرتلي، فتح الشكور م.س.ذ.، 1981.

23– توات واحة في الجنوب الشرقي في المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) ومقدم سؤال من توات مؤشر يدل على أن مسألة الرق وشرعية ملك الأشخاص كانت بحاجة إلي مزيد من التناول بداية القرن 11هـ وهي التي كانت مدعاة لكثير من الفتاوى في المغرب الأوسط وفي السودان.

24–سعيد إبراهيم هو عالم تونسي قدم إلى توات في القرن 10هـ واستقر بها وهو صاحب التدريس في تمنطيط، و صل إلى مقام عال في العلم وكان قد راسل أحمد باب التنبكتي حول مسألة أحوال الرقيق الذين كانوا موجودين بكثرة في الحواضر الصحراوية في جنوب الجزائر حينها. وتمنطيطي هي نسبة إلى تمنطيط وهي الحاضرة الصحراوية الزاخرة بالعلم و التجارة في نهاية القرن 10هـ / 11هـ في الجنوب الجزائري و التي كانت مقر الفقيه السائل.

25– عالم وفقيه شهير من موريتانيا. له كتاب في الفقه الملكي أسماه: كتاب البادية يركز في بدايته على ضرورة استمرار الاجتهاد لمواجهة المسائل المستجدة. و لهذا الكتاب نظير معرف ب: كفاف المبتدئ للعالم محمد مولود ولد أحمد فال اليعقوبي.

26– المغيلي التلمساني الشيخ محمد عبد الكريم، أجوبة المغيلي عن أسئلة الحاج محمد أسكيا، دار جامعة أوكسفورد للنشر، 1984 ، (حققها و علق عليها و ترجمها إلى الإنجليزية الدكتور جون هنويك)

27–اليدالي محمد، الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز، مخطوط، مكتبة خاصة.